لدلالة الجمع على الاستكثار الذي يأباه مقام الكبرياء وهو الوجه في إفراد الأرض
والسماء ولم يجز أن يعبر بابلعي ليلا يفهم ما ليس بمراد من تشبيه الابتلاع
بالجبال والتلال والنجاد وغير ما نظيرها التي مقام ورود الأمر الذي هو مقام
عظمة وكبرياء إذ بين المعنى إذا أتى الكلام مع أقلعي ولم يقل اقلعي عن إرسال
الماء احتراز عن الحشو المستغنى عنه من حيث الظاهر وهو الوجه في أن لم يقل
وقيل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت ويا سماء أقلعي فأقلعت واختير غيض على غيض
المشدد إليه لكونه أخف وأخص وأوفق لقيل وقيل الماء دون أن يقال ماء
طوفان السماء وكذلك الأمر دون أن يقال أمر نوح للاختصار أيضا ولم يقل
سويت على الجودي بجعل استوت على نحو قيل وغيض وقضي في البناء اعتبار
أيضا الفعل للفاعل مع السفينة في قوله تعالى وهي تجري بهم مع قصد
الاختصار ثم قيل بعدا للقوم الظالمين دون أن يبعد القوم الظالمون طلبا
للتأكيد مع الاختصار وهو نزول بعدا منزلة ليبعدوا بعدا مع إفادة أخرى
وهو استعمال اللام مع بعدا الدال على معنى البعد حق لهم ثم إطلاق الظلم
ليتناول كل نوع حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم بتكذيبهم الرسل
هذا بالنظر إلى كل كلمة من كلماته وأما بالنظر إلى تركيب جملها
فاعلم أنما قدم النداء على الأمر فقيل يا أرض ابلعي ويا سماء أقلعي دون أن يقول
ابلعي يا أرض وأقلعي يا سماء جريا على مقتضى اللازم فيمن كان مأمورا حقيقة
ليتمكن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادى ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء
لابتداء الطوفان منها ولهذا أنزله في القصة منزلة الأصل ثم اتبعها بقوله
وغيض الماء لاتصاله بقصة الماء ثم اتبعه بما هو المقصود من القصة
وهو قوله وقضي الأمر أي أنجز الموعود من إهلاك الكفرة وإنجاء نوح ومن
معه

معه في السفينة ثم أتبعه حديث السفينة ثم ختم القصة بما ختمت وأما
الذي هو من جهة علم الفصاحة فاعلم أن الفصاحة على قسمين معنوية ولفظية
فالمعنوية هي ما تراه من نظم المعاني اللطيفة وتأديتها ملخصة مبينة
لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد ولا التواء يشك الطرف عن المرتاد بل ألفاظها
تسابق معانيها ومعانيها تسابق ألفاظها واللفظية هي كما ترى
عربية مستعملة جارية على قوانين اللغة سليمة من التنافر بعيدة من البشاعة
عذبة من الجريان سلسلة على الأسلات كل منها كالماء في السلاسة والعسل
في الحلاوة وكالنسيم في الرقة وبالله التوفيق وهذا الفرد جاء فلنرجع
إلى بيت الناظم وفيه من البديع المطابقة وهي قوله ذل وعز والتجنيس وهو
قوله النضار والنضير والتمثيل وهو حال له أو عز بذا والتسجيع وهو
قوله البذل والفضل واللف والنشر اللف وهو ذل النضار وعز النضير والنشر
هو قوله في علم وفي كرم والمبالغة في قوله ذل النضار بجوده وعز النضير
بعلمه والاستعارة في قوله ذل النضار والاحتراس في جعله ذل النضار
بالبذل لا بعدم المنفعة والكفاية وسوء السياسة والتبذير والاستتباع
لكونه استتبع مدحهم بالكرم بقوله ذل النضار وعز النضير في العلم والتقسيم
في دلالة ذل النضار وعز النضير في صدر البيت على العلم والكرم في عجزه
والتمكين لكون القافية غير مستقلة ولا مستدعاة والكناية بذل
ذل النضار من أداة الجود وهو لازمه وائتلاف اللفظ مع المعنى ومع الوزن
عن تضمن هذا البيت أربعة عشر نوعا من البديع قال الناظم وربما يستنبط
منه الناظم فيه أنواعا أخر كالتوشيح والتعليل والتجنيس والتهذيب
وحسن الفصل وغير ذلك اللغة قوله ذل يقال ذلت الدابة